الجداول

للشاعر العربي الاميركي ايليا ابي ماضي

١ — الفلسفة

أرأيت الجداول والبيدار يدفعها كيف تنساب في الارض مطردة الجريان عاجزة عن القرار في جبل أو الثبوت في سهل ؟ فمثلها مثل ايليا ابي ماضي افندي اذ يعتقد ان قوة خارجية حركته فمضى منطلقاً قدماً وسيظل في طريقه حتى حين وهو عاجز عن اقرار رأيه في امر دينه او في امر دنياه

ان ايليا ذاهب في الفلسفة مذهب اولئك الحيارى الواقفين من الخليقة ولواميسها وما وراءها موقف الرجل الجاهل المعترف بجهله فان سألتهم عن الامر القائم من دون شرط ولا حد كمثل المادة او بداية الكون ونهايته اجابوك لسنا ندري لان هذه الامور تفوق ادراك البشر

كل ما تقصر المدارك عنهُ كائن مثلما الظنون تشاء[1]

وهذا الضرب من الفلسفة يقال لهُ عند الافرنج Agnosticisme وقد ترجمهُ المرحوم الدكتور صروف الى العربية باللاأدرية . على انك اذا قرأت في « الجداول » قصيدة « الطلاسم » فوجئت بالمطلع :

جئتُ لا أعلم من أين ولكني أتيتُ
ولقد ابصرت قدامي طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً ان شئت هذا أو ابيت
كيف جئت ؟ كيف ابصرت طريقي ؟ لست أدري[2]

فهو يجهل أنى مصدره وأنى مصيره معتقداً أن قوة خارجية حركته فمضى وسيظل يمضي حتى حين . ثم انك تراه يقرُّ في الابيات التالية انهُ لا يدري أحديث العهد في الدنيا ام قديمهُ امن العدم تكون ام من المادة . وانك لتراه يناجي البحر والمقابر والقصر والكوخ والدير ملتمساً منها حلَّ الطلاسم التي دقت على ذهنه ولكنهُ كلما ازداد اقتراباً منها ازداد بعداً عنها وبين جنبيه اليأس والحيرة . وقد اذكرني هذه الحال النفسانية

(١) الجداول ص ١٣ (٢) ص ٨٩

الشاعر الفرنسي (سولي برودوم) وهو يعترف في قصيدة لهُ عنوانها « الشك » بأنهُ ما فكر ساعة في مظاهر الدنيا وخفايا الآخرة الا يئس من الخلوص الى كنهها ولكن ابا ماضي لا ينكر على نفسهِ جوهرها مع جهله لهُ

لي ذات غير اني لست ادري ماهيه
فمتى تعرف ذاتي كنهَ ذاتي؟ لست ادري[1]

وهو يجهل جوهر نفسهِ لانهُ لا يلمسهُ فانهُ وضعيٌّ Positivist . هذا وان مذهب الوضعية مرتبط بمذهب اللاادرية . فان (كونت) و (هربرت سبنسر) كانا جامعين للمذهبين فاذاً ابو ماضي لا يركن الى الامر حتى يقع تحت حسهِ

ان صدقاً لا احسُّ بهِ هو شيء يشبه الكذبا
لا ينجّي الشاة من سغب انَّ في ارض الحمى عشبا[2]

هل يؤمن ايليا بالبعث وبالآخرة ؟ لا فهو كأبي العتاهية ان صح مازعمهُ فريق من ادباء العصر العباسي

— ما لحي بالموت عنهُ[3] اقتصار ان دنياه هذه اخراه[4]
— فمن حسب العيش ديناً واخرى فذا رجل عقلهُ احمولُ[5]

وزد على ذلك ان ابا ماضي يستسلم الى القضاء ولا عجب ان فعل فانهُ شرقي وفي النفس الشرقية بل في معظم التقاليد الشرقية وعقائدها اذعان للقدر . ثم ان ابا ماضي ينفي حرية النفس واختيارها :

سدتَ او لم تسدْ فما انت الا حيوان مسيَّرٌ مستعبدْ[6]

ثم ان ايليا متشائم من الدنيا حاقد عليها جرياً على فلسفة (شوبنهاور) الالماني، نفور من اهلها نفور ابي العلاء منهم و (الفريد دي فيني) الشاعر الفرنسي . فهو آخذ على الناس رثاءهم وكذبهم وتيههم وانانيتهم واكرامهم الغير لمصلحتهم الشخصية . على انك تراه بعد ذلك يتمرد عليهم فيصبح بلشفيًّا مرَّ اللسان مقتول الساعد :

انت مثلي من الثرى واليهِ فلماذا ياصاحبي التيه والصدّ
قبر واحد يطل علينا وعلى الكوخ والبناء الموطدْ
ايها الطين لست انقى واسمى من تراب تدوس او تتوسد[7]

(١) ص ١١٢ (٢) ص ١٥ (٣) الضمير راجع الى الكون (٤) ص ٦٤
(٥) ص ٢١ (٦) ص ٢٧ (٧) ص ٢٤ و ٢٧

وأني تمثلت وقصيدة « الطين » هذه بين يدي بيت للمعري

لو يعرف الانسان مقداره لم يفخر المولى على عبده

***

هذه فلسفة ابي ماضي. غير انك تراها تتزعزع من اللاادرية الى الوضعية والدهرية والاسترسال الى القضاء والتشاؤم والبلشفية ثم اضف الى هذا الايمان بوجود الله :

اراد الله ان لعشق لما اوجد الحسنا

مشيئتهُ . . . وما كانت مشيئة بلا معنى (١)

٢ — الشاعرية

ان ابا ماضي شاعر ابتداعي Romantique استناداً الى ترجمة الشيخ الزيات. وقد وفّق الشيخ في ترجمته الا قليلاً ولكن الجدل في هذا الباب ليس من شأننا هنا اي الشعراء الشاعر الابتداعي وما ابتداعهُ وما طريقتهُ أهو من عدل عن اسلوب الشعراء الاقدمين ونهج لنفسه منهجاً ترتاح اليه طبيعتهُ ولقد تمتاز طبيعة هذا الشاعر اولاً — بالاحساس الحاد وربما بلغ هذا الاحساس مبلغاً جاوز الحد فصار مرضاً نفسانياً ثانياً — بالمخيلة الواسعة الشاذة الخارجة عن إعمال الروية ومناسبة الواقع. ثالثاً — ببسط احوال النفس. والمعلوم ان ميزة الشاعر الابتداعي محاولتهُ الفرار من العالم الدنيوي الى العالم الروحاني

وانك لتجدنّ كل هذه الصفات في شعر ايليا ولو لم تكن لكانت « الجداول » ديواناً حافلاً لطول تردد الفلسفة بين دفتيه ، فكثيراً ما يحدثك ايليا عن كرب نفسه وانقباض صدره ثم انظر اليه وهو يصرح لك في قصيدته « انا » انهُ يعفُّ عن الشر والانتقام ويشد من عزم صديقه ويتجنب الخيلاء والطموح راضياً بما قسم له الله. ثم انهُ يقول في قصيدة « الموسجة »

وبنفسي الف معنى لم يضمن في كتاب (٢)

وهذا قول حق فلكل منا ولا سيما الشاعر معان مطوية لن ينشرها ناشر

ان ايليا شديد الاحساس حتى لانهُ يذوق اللذة في الحزن

انا من قوم اذا حزنوا وجدوا في حزنهم طربا (٣)

وان لهُ خيالاً جميلاً يخالطهُ شيء من الرقة

عصر الاسى روحي فسالت ادمعاً فلمحتها مدلتها في ادمعي (٤)

(١) ص ١٨ (٢) ص ٧٤ (٣) ص ١٦ (٤) ص ٨

ثم ان لهُ خيالاً يستمده من روعة الطبيعة التي يستأنس بها كما صنع من قبل ابن الرومي وابن المعتز وشعراء الانجليز« البحيريين» Lakistes ومن سلك مسلكهم من شعراء المانيا وفرنسا

— وليلُ الليل راهبي وشموعي الشهب والارض كلها محرابي (١)
— السحب تركض في الفضا ء ارحب ركض الخائفين
والشمس تبدو خلفها صفراء عاصبة الجبين (٢)
— ان لليل دموعاً لا تراها مقلتان (٣)

وربما اعتسف الخيال فركب رأسهُ فيه

غير انك تجد لابي ماضي مذهباً في الشعر غير المذهب الابتداعي . فانهُ كلفٌ بالشعر الرمزي Symbolisme (٤) كلف ابن الفارض به وكان هذا المذهب قد شاع في فرنسا قبل انتهاء القرن التاسع عشر .الا ان ابا ماضي كثيراً ما يتكلف المعنى في هذا الضرب من النظم فيقصر البيت عن اداء الفكرة فيعمى القارىء عن استيضاحها. وشأن ابي ماضي في الغموض شأن شاعر فرنسي رمزي يقال له (اسطفن مالارميه) وكان مطالع ديوان الرجل يطرب لنظم الشعر وصوره مهملاً تفسير رموزه

***

دعني بعد ما بسطت لك فلسفة الشاعر وشاعريتهُ اطلعك على ما راقني في ديوانه من معان وصور لا تخلو من جرأة في الابتكار

— لكن بامر الحب قلبك طائعاً في ذاته (٥)
— كان في صدري سرٌ كامن كالافعوان (٦)
— والغيم الاسود يحتشدُ طبقاً في الجو على طبق
والليل يطول ويطرد والارض كسارٍ في قلق (٧)
— فتشت جيب الفجر عنها والدجى ومددت حتى للكواكب اصبعي (٨)
— واجل منهنَّ (٩) الفراشات في الضحى لها كالاماني سكنة ووثوب (١٠)
— فتح الموت حين اغمض عينيه عيونَ الورى على حسناته (١١)

(١) ص ٢٩ (٢) ص ٣٢ (٣) ص ٤١ (٤) كقصائده « النقاب » « الاشباح الثلاثة » و« ريح الشمال » و « الحجر الصغير »و « ابن الليل » وغيرها (٥) ص ٣٧ (٦) ص ٤١ (٧) ص ٦٩ (٨) ص ٥ (٩) الضمير عائد الى نتيات القصر (١٠) ص ١٠ (١١) ص ٨٨

ومعنى هذا البيت قديم في صيغة جديدة حلوة الاستعارة. قال الشيخ ناصيف اليازجي

لا يحمد القوم الفتى الا متى مات فيعطى حقه تحت البلى

الا اني استهجنت غيرها :

—يا صاحبيّ وفي حنايا اضلعي همٌ يكظّ الروح بل يدميها [1]

—ساعة في الخلاء خير من الا عوام تقضى في القصر والاحقاب [2]

وهذا البيت تشويه للبيت المشهور :

ليت تنفخ الارياح فيه احب اليّ من قصر منيف

٣ — الغزل

الغزل فنٌّ قائم بذاته غير تابع للمذاهب الشعرية بل تابع لنفسية الشاعر وروح بيئته . فاما غزل ابي ماضي فبضاعة قليلة جدًّا والسبب في ذلك اولاً انهُ منصرف الى الفلسفة والفلسفة علم جامد والغزل كلهُ عاطفة. ثانياً انهُ متزوج والزواج وان كانت عروتهُ الحب لا يتفق مع التشبيب .فان ضروب الشق غير واحد ولكنها احدها يوحي الشعر فقط وهو الذي انطق (هوجو) و(لامرتين) مع انهما متزوجان . واني إخال ابا ماضي بنجوة عن هذا الضرب فما لهُ في التشبيب سوى قصيدة « تعالى » والغالب في ظني انها رمزية : يريد الحب ان تضحك فلتضحك مع الفجر

وان تركض فلتركض مع الجدول والنهر

وان تهتف فلتهتف مع البلبل والقمري

فمن يعلم بعد اليوم ما يحدث او يجري [3]

وهي كما ترى تهتف بالحب وتطمئن الى الطبيعة. واما نوع هذه القصيدة فاحد انواع الشعر الاغريقي القديم المعروف بشعر الرعاة Bucolique او شعر الغاب Pastorale وقد ذهب فيه ابن الرومي قليلاً واولع به (اندريه شنيه) الشاعر الفرنسي فبلغ به شأواً بعيداً ونحا نحوهُ (لامرتين) من دون تقليد في قصيدة أودعها روح عصره السقيمة. ثم ان بين قصيدة (لامرتين) وبعضها وبين قصيدة ابي ماضي وجهاً من الشبه الا ان ايليا يبرز في القصيدة نفسها رجلاً ابيقورياً مبادراً كابي نواس الى اللذات:

تعالى نسرق اللذا ت ما باعدنا الدهر

وما دمنا وما دامت لنا في العيش آمال [4]

(١) ص ٣٩ (٢) ص ٣٠ (٣) ص ١٩ (٤) ص ١٨

او ما يمرض لك وانت حيال هذين البيتين قول ابن الرومي :

فبادر الدهر بالناعم واللذ ات واحذر من وشك مرتحل

او قول الشريف الرضي :

وبادر الى اللذات فالدهر موئل بتغيص عيش واصطلام علاء

٤ — الذوق

صبَّ ايو ماضي ما خطر لهُ من المعاني والصور والاستعارات في قالب بالاجمال عربي الحد لله .على ان مدرسة اميركا غشيتنا لعشرين سنة مضت ومعظم انصارها يهملون اتقان العربية وهاهم اليوم فطنوا أن التصانيف لا تخلد الا اذا حلا اللفظ الفكرة وان اغفال اللغة والتهاون بقواعدها نقص وعيٌ لا بدعة ومقدرة

فان ديوان ابي ماضي مصنف عربي ما خلا بعض سقطات لغوية (منها كسى، مُسَدل،مهاب،ارتهاب ، شاركهُ به ، جزع لهُ وعليهِ بمعنى،اوقفهُ ،ضُمِّن في الكتاب) وعدة تراكيب سقيمة مع شيء من القصور عن اختيار الالفاظ (أكان غيًّا ام قويًّا ،واذا بالسرّ، وقت جميل، لا تراهُ مقلتان ، خرّ العصفور الى الارض ، املأ الكاس على ذكركم والمراد نخبكم ،اوجدالله الحسن وتقول العرب كوَّنهُ وسوَّاهُ)

وفي الديوان ابيات معقدة واليك :

ما على من لا يطيق برق نوَّر الوادي او اكتأبا (١)

هذا وان المقطوع « قطرة الطل » افصح ما ضمتهُ « الجداول » .ثم ان ايليا تصرف في النظم تصرفاً لا بأس بهِ ولكنهُ زلات في الوزن كخلط الهزج بمجزوء الوافر

٥ — الخاتمة

وختاماً ان ايليا ابا ماضي شاعر ملء جوانحهِ الشعور والاحساس لطيف الخيال وغريبهُ ، صاحب مذهب فلسفي مضطرب المبدأ واغرب من غريب خياله ، حديث الطريقة مقتبسها عن الفرنج منفرد بانشائهِ خارج فيهِ عن المألوفِ بعض الخروج حيناً وكلهُ حيناً آخر . يدان لهُ شخصية بارزة تستطيع ان تتلمسها من خلال منظوماتهِ وان لم يكن له الا هذه السجية فحسبهُ لان الشعراء الذين يسوت شعرهم بنفسيتهم معدودون عندنا واني اعرف جلهم ولكن اهل الادب يستخفون بدواوينهم لطول عهدهم بغيرها و لتقصر باعهم عن الاتيان والله بمثلها مصر الجديدة ادوار فارس

(١) ص ١٥